حدود مصر الشرقية*

رأفت عبد الحميد

مصر

لم تسعد مصر بحد من حدودها .. كما سعدت بحدها الشرقي!

ولم تشق مصر كذلك بحد من حدودها .. كما سعدت بحدها الشرقي!

حادثات الزمان تقول ذلك

ووقائع الدهور تحكيه

ولا يكذب التاريخ ولا يتجمل حين يدون أن بشائر السعادة، وإن كانت قليلة، إلا أنها كانت قرينة العمر الطويل، والأثر الباقي.. والمعني والمغزى في الفكر والحضارة والشخصية.

ولا يكذب التاريخ ولا يتجمل حين يسجل بكل الحسرات أن مسببات الشقاء كانت كثيرة،ولكنها لم تلبث إلا قليلاً .. مهما طالت.. وجارت مكثت غير بعيد.. ثم دالت.. وتلك عقبي التعدي.

هناك.. عند الحد الشرقي.. يفتر الثغر المصري عن ابتسامة.. فيحتزم القلب أوردته والشرايين.. ويتراقص من حب وحبور..وهناك أيضاً .. تتكأ الجراح. فينقبض الصدر.. وتختفي الابتسامة.. وتتولى إلي الظل حياة.. لتولد من جديد.

سعدت يوم قدم إليها أبو الأنبياء إبراهيم.. موحياً بمقدمه أن مصر واحة الدين وإن تعددت أسماؤه..

ويوم أصهر إلي أهلها بزواجه من هاجر المصرية.. لتغدو هذه أم العرب من أسباط بني إسماعيل.

سعدت يوم فتحت بالحب أحضانها، وبالأمن والأمان ذراعيها.. لتستقبل العذراء ورضيعها المسيح، وتمسي الملجأ والملاذ للعائلة المقدسة، من مكر بني يهود، وبطش بني الأصفر!

*ألقيت هذه الكلمة فى ندوة أقامها المجلس الأعلى للثقافة فى شهر مايو ٢٠٠٢، وكان سيادته مقررا لها. وقد قام د طارق منصور على نشرها لسيادته بعد وفاته، عرفانا وتقديرا.

وسجل ربنا ذلك في قرأنه الكريم بقوله سبحانه وتعالي: (وجعلنا ابن مريم وأمه آية، وآويناهما إلي ربوة ذات قرار ومعين) وكانت مصر هي الربوة.. وكانت المعين.

ووجدت المسيحية في مصر أرضا خصبة، نمت فيها وأورقت، ومكنت الكنيسة السكندرية لنفسها فيها، حتى جاءتها كنائس الرسل الأخرى تسعي.. تقف علي بابها، وتخطب ودها.. وتسألها الرأي الفصل في شأن المسيح ومكانته، وأبعاد اللاهوت والناسوت في طبيعته.

وإلي صحرواتها علي ضفتي النهر الخالد، سرى المريدون من كل أنحاء العالم، ليجلسوا مجلس التلميذ أمام رهبانها، يحتذون بهم، وينقلون عنهم، حتى غدت الرهبانية المصرية لدنيا المسيحية، أسلوب عبادة، وأنموذج حياة.

وسعدت مصر يوم أصهرت بمارية المصرية إلي محمد بن عبد الله، عليه أفضل الصلاة والسلام.. فجمعت بذلك ليس بين الحسنيين، بل الحسن كله.. وكيف لا وقد أصهرت من قبل إلي أبي الأنبياء إبراهيم.. والآن إلى خاتم الأنبياء محمد!

وسعدت يوم حمل جند الإسلام رسالة السلام إلي أهليها، وبين أيديهم سماحة، وفي قلوبهم من الرسول وصيتان.

- أن يستوصوا بأهلها خيراً ..فإن فيهم صهراً .. ولهم ذمة..
- وأن يتخذوا من أهلها جنداً كثيفاً .. فإنهم خير أجناد الأرض.. ولأنهم في رباط إلي يوم الدين.

سعدت مصر يوم احتضنت الإسلام وتدثرت به.. واحتضنها الإسلام واحتمي بها.. وعاش المسلمون والمسيحيون فيها يعزفون نغمة المحبة علي قيثارة السلام. يترنمون بالإنجيل.. ويرتلون القرآن. وتتعانق مآذن المساجد وأبراج الكنائس في لوحة رائعة للتسامح، بريشة راقية للحب.

سعدت مصر يوم أضحت قبلة الدارسين، وكعبر حجيج المعرفة الإنسانية، الذين وفدوا من كل أنحاء العالم الإسلامي، لينهلوا من فيض علم أزهرها الشريف، وليتفقهوا في الدين، علي يد علماء سمت نفوسهم، وترققت طباعهم، ورقت أخلاقهم، فكانوا بحق أنموذجاً يحتذي، وقدوة.. بها.. يقتدي.

وسعدت مصر بحدها الشرقي يوم خرجت جيوشها، خير أجناد الأرض، ترد عادية المعتدين الذين جاءوا يتسترون برداء الصليب.. والصليب والمسيح منهم براء، ورددت حطين والمنصورة.. إنا نحن جند النصر، أبطال الدفاع، يوم يدعونا لداع الحرب داع.

وتدفع بغي جحافل المغول، الذين ساحوا في الأرض وعاشوا، وأكثروا فيها الفساد.. فصب عليهم ربك سوط عذاب، حين أجبرهم جيش مصر أن يضعوا في قاموسهم العسكري لأول مرة، لفظة الهزيمة، ولم يكونوا قبل "جالوت" قد عرفوها..

الآن لحقت بهم.. فعقلوها.. وحمت مصر الإسلام وحضارته من شر مستطير..

تلكموا سادتي هي سعادة مصر بحدها الشرقي.. وفي الجعبة كثير، ولكنها به شقيت..

شقيت به يوم انتهكته جحافل الهكسوس، وجيوش الفرس، فيالق الصليبيين، وقبائل المغول.. والكل في مصر طامع، ولخيرها ناظر.. لموقعها في حلقة غصة، ولجندها في جنبه شوكة.

هاكم هولاكو يقول في رسالته إلي سلطان مصر المملوكي قطز "قلوبنا كالجبال.. وعددنا كالرمال.. نحن لا نرحم من شكا، ولا نرق لمن بكى، عليكم بالهرب.. وعلينا الطلب، فلم يبق لنا مقصد سواكم".

والجملة الأخيرة تغني عن أي تعليق.

وكم قبل قالها عموري ملك بيت المقدس.. وصدق عليه خلفه غير المباشر جان دي بريين.. حين قالا بنبرة واحدة.. وعبارات مختلفة، إن الطريق إلي القدس يبدأ من القاهرة، وإن مصر هي رأس الأفعى.. من حطمها دان به الشرق.. وكأني بالصالح نجم الدين أيوب.. يقول لهم موتوا بغيظكم.. فلم تناولا منها رطباً ولا يابس.. وهو يعظ أبنه توران شاه في وصيته..

".. يا بني .. احرص على ألا يكون للفرنج بالديار المصرية قعر قصبة، فإن كانت بيداك مصر.. كان بيدك الشرق كله، وإن هي.. لا قدر الله ضاعت.. ضاع الشرق كله!".

وكأني بشاعر النيل.. حافظ إبراهيم يصدق على ذلك كله بقوله علي لسان مصر

أنا تاج العلاء في مفرق الشرق ودراته فرائد عقدي

أنا إن قدر الإله مماتي.. لا تري الشرق يرفع الرأس بعدي

وشقيت مصر بحدها الشرقي يوم دبر المؤتمرون بليل من بني يهود، ومن ورائهم قوي الاستعمار الغربي في النصف الأول من القرن العشرين، زرع جسم غريب علي حد مصر الشرقي، بغية عزلها عن أشقائها العرب، وبغية شغلها دوماً عن التطلع إلي بلوغ آفاق التنمية البشرية والاقتصادية، وإهدار طاقاتها المبدعة والخلاقة في نزيف عسكري متقطع ودائم.

ولكن.. أعود إلي صدر حديثي..

كم هي بقصيدة وإن كثرت ساعات الشقاء وحادثاته.

وكم هي معمرة علامات السعادة ووقائعها..

ونحن هنا في ندوتنا هذه.. حول حد مصر الشرقي..

تروا.. ماذا نحن فاعلون؟"